المشاركة في الملتقى الوطني الأول: السرد الجزائري بين خصوصية الواقع المحلي و الانفتاح العالمي
المنظم من طرف فرقة البحث :المكونات المحلية و العالمية في الأدب الجزائري الحديث و المعاصر،قسم اللغة و الأدب العربي،كلية الآداب و اللغات ،جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي،تبسة ،يوم: 12 نوفمبر 2023
عنوان المداخلة:المرجعيات التراثية في رواية "حيزية" لعبد الملك مرتاض-التراث الشعبي أنموذجا-
إعداد:الدكتورة إيمان برقلاح
البريد الإلكتروني:imenberguellah2020@gmail.com
الجامعة الأصلية: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.
ملخص:

يعتبر التراث بأشكاله المختلفة مرجعا هاما ،يسعى كثير من الروائيين الجزائريين إلى توظيفه في مضامين رواياتهم، باعتباره حضورا للماضي في الحاضر ،و سمة أساسية للحفاظ على الهوية الجزائرية أمام ضغط التحديات الخارجية.

و لأن التراث الشعبي شكل من أشكال التراث، و مكوّن هام من مكونات ذاكرة الشعوب و ثقافتهم، يعتبر سمة بارزة ميّزت الأعمال الروائية الجزائرية عامة ،و روايات عبد الملك مرتاض خاصة اخترنا منها روايته "حيزية" ،التي نزحت إلى توظيف التراث الشعبي بمختلف أشكاله ،المادي و اللامادي فكيف تجلى ذلك في هذه الرواية؟ و هل يمكن اعتبار حضور التراث الشعبي في الرواية تعبيرا عن الأصالة؟ أم أنه تعبير عن الانفتاح؟هذه التساؤلات و أخرى سنحاول الإجابة عنها في هذه الورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية: مرجعية ،تراث شعبي ،تراث مادي ،تراث لا مادي

Abstract:

Heritage in its various forms is an important reference, which many Algerian novelists seek to employ in the contents of their novels, as it is a presence of the past in the present, and an essential feature for preserving the Algerian identity in the face of the pressure of external challenges.

Because folklore is a form of heritage, and an important component of the people's memory and culture, it is considered a prominent feature that distinguishes Algerian novels in general, and Abdelmalek Mortadh's novels in particular, from which we chose his novel "Hizia," which resorted to employing folklore in its various forms. The material and the immaterial. How was this manifested in this novel? Can the presence of popular heritage in the novel be considered an expression of

authenticity? Or is it an expression of openness? These questions and others we will try to answer in this research paper.

Keywords: reference, popular heritage, tangible heritage, intangible

مقدمة:

يعدّ التراث بأنواعه نتاج حقبة زمنية ماضية ،حيث يعكس سياقات فكرية متنوعة، تحقق سيرورة الانفتاح على أزمة لاحقة تخلفها العقول، و المادة التراثية بما تحمله من زخم معرفي و ثقافي مرجع أساسي يستند إليه الخطاب الفني عموما ،والسرد الروائي خصوصا.

فالتراث أحد ركائز كتابة الرواية العربية عامة والجزائرية خاصة، حيث أصبح ظاهرة متداولة على كل المستويات، و جزء لا يتجزأ من كيان ووجود الفرد، يعبّر من خلاله الروائي عن شخصيته و انتمائه ، "وهو كذلك مسلك من مسالك التجريب التي يعتمد عليها الكاتب في نصه، فباختلاف أنواعه (التراث التاريخي، الديني الأدبي، والشعبي) استطاع أن يقتحم جنس الرواية من أوسع أبوابه ويتخذ منها موطنا له، بل ويعتبر أحد الأساليب المستحدثة لكتابة الرواية بتمازج كل ما هو قديم بما هو حديث، لخلق عمل روائي حديث، يحمل لمسات إبداعية وفنية"[1].

و في هذه الورقة البحثية سنحاول استظهار أهم مرجعيات التراث الشعبي التي اتكأ عليها عبد الملك مرتاض في بناء روايته "حيزية"،و التي ساهمت بصورة مباشرة في إضفاء نوع من التجديد و التجريب على هذه الرواية، ولكن قبل ذلك يجب أوّلا أن نبيّن ما مفهوم التراث الشعبي؟ .

1-مفهوم التراث الشعبي:

يعد توظيف التراث الشعبي في النصوص الأدبية ظاهرة بالغة الحضور وذلك لأن التراث الفني مادة غنية وثرية بما تحمله من رموز ودلالات عميقة ذات معنى، ولقد اختلف الباحثون في تحديد مفهوم مضبوط لهذا المصطلح المركب،حيث يحتل التراث الشعبي مكان الصدارة كونه القول والكلمة المسموعة، إذ يحاول تفسير كل ما يشمل تفاصيل الحياة الشعبية البدائية بكل أشكالها، والتراث الشعبي له عدة مصطلحات تقابله من بينها الفولكلور،الفوليكسكندة*، الموروثات الشعبية، الفنون الشعبية.

[1]- أحلام سيليني،أحسن دواس ،مرجعيات التشكيل الروائي في رواية سيد الخراب لكمال قرور ،مجلة إشكالات في اللغة و الأدب،تمنغست ،المجلد 10،العدد5 ،2021م ،ص798.

ويرى **حلمي بدير** أن:" التراث الشعبي يشمل كلا من العادات والتقاليد ومختلف الطقوس والأزياء في المناسبات، طقوس الزواج والميلاد والوفاة والختان والزرع والحصاد ونحوها، بل ويشيع ليشمل سلوكات الأفراد مع أنفسهم فيما يأخذون ويدعون وما هو عيب وما هو ليس كذلك"[1].

أي أن التراث الشعبي يمس جميع جوانب الحياة التي يعيشها الفرد والمجتمع، فهو بمثابة وعاء يجمع كل ما تزخر به الحياة البشرية من عادات ،وتقاليد ،ومختلف الطقوس التي كان يقوم بها الإنسان من أفراح وأحزان وتصرفات وسلوكات.

والتراث الشعبي هو رؤية جماعية ،وقد أُطلق عليه صفة الشعب بما يوحي أنه مجهول المؤلف، وأنه يعبر عن روح الجماعة بحيث لا تظهر ذاتية الفرد في هذا التراث، " ثم إن التراث الشعبي لا يعبر عن وجدان فردي واحد ولا يكترث بالرؤية الفردية الأحادية، لأنه يزخر بتراث عميق عمق تاريخ الأمة بأكملها فهو ضميرها الحي المعبر عن أفرادها وإبداعاتها المختلفة"[2].

وإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر للتراث الشعبي فهو يشمل جميع الموروثات على مدى الأجيال من أفعال وعادات وتقاليد ،وسلوكات وأقوال، تتناول مظاهر الحياة العامة[3].

بهذا يصبح التراث الشعبي مصطلحا جامعا للجوانب أو الموارد الثقافية، سواء الفكرية أم المادية التي يتوارثها الناس عبر الأجيال، وبذلك تكتسب صفة البقاء والاستمرار ،وتصبح في جانب من جوانبها فعلا مؤثرا وسلوكا مرعبا يحرص عليه أصحابه، ويحاولون تأكيده وترسيخه لدى غيرهم[4].

2-مرجعيات التراث الشعبي في رواية "حيزية" :

2-1-التراث اللامادي :

يتمثل التراث اللامادي في" الصورة الفكرية أي الصورة التي ترتسم في ذهن الإنسان، وهو يواجه لغز الوجود محاولا فهمه في مختلف مراحل الحياة الفكرية والبشرية واضطراباته في غيبوبته وصحوته، فيما يظهره على السطح، وفيما يخفيه في أمانيه وخيبته...في فرحه وحزنه وتفاؤله وتشاؤمه هي صورة فكرية لا تعرف التوثق أو السكون سبيلا"[5].

---

*الفوليكسكندة: هي الفلكلور الألماني وهي ترجمة للتراث الشعبي، هي مصطلح علقت به مجموعة من الدلالات من بينها:البحث في الثقافة الشعبية، فحص الموروثات في الثقافة الشعبية، دراسة الطبقة الدنيا من الأمة، دراسة القرويين و موروثاتهم.للمزيد ينظر أمينة فزازي، مناهج دراسات الأدب الشعبي، دار الكتاب الحديث، الجزائر، الطارف، دط،2012، ص07

[1]- حلمي بدير، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء، لدينا الطباعة والنشر، الإسكندرية، دط، 2002، ص13.

[2]- بلحيا الطاهر، التراث الشعبي في الرواية الجزائرية، منشورات التبيين الجاحظية، الجزائر، دط، 2000، ص10- 11.

[3]- ينظر:حلمي بدير، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، ص15.

[4]-ينظر: المرجع نفسه، ص21.

[5]-سعيد سلام، التناص التراثي ، الرواية الجزائرية أنموذجا،عالم الكتب الحديث،إربد ،الأردن،ط1 ،2010م،ص15.

إذن التراث اللامادي يمنح النص قيمة جديدة ولكن بطريقة شعبية وتتماشى مع أركانها، ويشمل: المعتقدات ،الأمثال، الأغاني ، العادات والتقاليد وغيرها...،و فيما يلي عرض لأهم ما اشتملت عليه رواية "حيزية "من تراث لا مادي.

أ-المعتقدات الشعبية:

إن المعتقدات الشعبية تعد جزءا من عادة الشعوب وأحد رموز ثقافتها، يمارسها الأفراد ويطبقونها على كل ما يصادفهم من مختلف الظواهر بهدف إيجاد التفاسير للأمور التي تحيرهم، فالإنسان منذ وجوده على الأرض يبدأ يكيف حياته على المعتقدات، يراقب ويلاحظ الظواهر الطبيعية ويحاول إيجاد تفسيرها ومع مرور مئات آلاف السنين ،استطاع الإنسان العاقل أن يرسم رؤيته لهذه الحياة وحاجته لها وسعيه لتفسيرها، كانت بدافع الرغبة في مواجهة الأحداث الطارئة، لذا فهو صانعها، والطبيعة الإنسانية تضل هي التي تحكم عليه أن يقيم صرحا من العادات والتقاليد والمعتقدات، وهو أن يفعل ذلك يرسي دعائم المجتمع[1].

وإذا "كانت المعتقدات الشعبية متصلة بأعماق الطبيعة البشرية فإنها موجودة في الريف والمدينة عند الأمي والمتعلم، وذلك أن التفكير البسيط المجرد من أصول المعرفة العلمية لا يقتصر على فئات مستويات السلم الاجتماعي لأفراد المجتمع الواحد"[2].

والمعتقدات الشعبية تعتبر من أصعب عناصر التراث الشعبي من حيث القدرة على الإحاطة بجميع مكوناتها وأصولها، ونظرا لمهامها الواسع الذي يمتاز بالجفاء والغموض والتداخل فيما بينهم، رغم وجود معتقدات كثيرة تحت أسماء مختلفة، إلا أن جوهرها وطبيعتها واحدة وشديدة التشابه.

و من أصناف المعتقدات الشعبية التي تجلت بصورة كبيرة في رواية "حيزية "لعبد الملك مرتاض الاعتقاد ببركة الأولياء الصالحين، حيث تعدّ من أهم الظواهر الاجتماعية والاعتقادية التي لها انتشار واسع في منطقة الغرب الجزائري، وعادة ما نجد ضريح الولي الصالح في مكان يدعى "مقام" وهي غرفة نجد فيها ضريح هذا الأخير ويخض هذا المكان باحترام وتبجيل كبير لدى الناس، لذا يكون مقصودا للزائر الذي يغطونه بأفخم الأقمشة، ويعتقد الزوار أن البركة تنتقل على هذا الأخير فيمسحون بها وجوههم، وفي هذا المكان يدعو التفريج همومهم وشفاء عللهم وأسقامهم التي عجز الطب عن إيجاد دواء لها باعتبارهم ولاة العالم، والحل والعقد منوط بهم، وتدبير العالم موصول بهمتهم[3].

---

[1] ينظر:سعاد حميدة، جمالية الصراع بين المقدس والمدنس في الشعر الشعبي بمنطقة تبسة، أطروحة الدكتوراه، جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله، 2018/2017، مخطوط، ص 17-18.

[2]محمد الجوهري، علم الفلكلور، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1978، ج1، ص62-63.

[3]-ينظر: إبراهيم بدران وسلوى الخماش، دراسات في العقلية العربية، الخرافة، دار الحقيقة، بيروت، ط3، 1988 م، ص.113

وتنتشر ظاهرة زيارة الأولياء الصالحين عبر كل أرجاء الوطن حيث أصبحت كل منطقة مرتبطة بضريح، وهناك بعض العائلات التي تركز على انتمائها إلى ولي ما، وتفتخر بذلك كونها عائلة شريفة حيث كانت بعض العائلات التي تقوم كل موسم بزيارة الأولياء الصالحين، يأخذون وجبة كاملة ويمضون نهارا كاملا عند هذا الولي، وتلجأ العائلات إلى أخذها شاة وذبحها عند هذا الولي الصالح.

و من الأولياء الصالحين الذين تم ذكرهم في الرواية:

سيدي الهواري: (1350-1439):

هو الشيخ محمد بن عمر الهواري، علامة، ويعده أهل وهران من أولياء الله الصالحين، تعلم القرآن والعلم مبكرا وبدأ الأسفار لتلقي العلم والمعرفة إلى أن أصبح مدرسا، ثم عاد إلى الجزائر مباشرة إلى وهران التي كانت تعج آنذاك بالثقافة والعمران والتجارة إلا أنها كانت تبتعد عن تعاليم الدّين لعدم وجود مصلحين ومدرسين وهذا ما عكف عنه الإمام.

و في رواية "حيزية"ذكر الروائي تلك المرأة المسكينة التي ضاقت بها السبل، فراحت تلجأ إلى ضريح سيدي الهواري، لأنه في نظرها الحل الأنجع لإنقاذها وإسعاف حالها ،فهي تعتقد أن هذا الولي الذي يرقد تحت التراب هو المخلص والشافي من كل العلل.

تقول:"سيدي الهواري يا عظيم الشأن، هذي بنتي جاءتك قاصدة. انظر سيدي الهواري، جمال لا كالجمال، جمال وحيد نسجه على الأرض، عشقها عفريت جبار. سكنها، اعتدى على عقلها، خالطها، أصبحت مجنونة، ويلي عليك يا بنتي..."[1].

السيدة تشكو حال ابنتها إلى سيدي الهواري التي تعتقد أن عفريتا تلبسها ،وسكن عقلها وجسدها، تناجيه أن يخلصها من أغلاله، فهو في ظنها الوحيد الشافي المعافي.

تقول أيضا:"سيدي الهواري يا صاحب البركة، جئتك قاصدة، جئتك بالله في الجاه، بركتك عظيمة، وخيرك عميم، ووليدي في السجن، وأنت تعرف هذا يا سيدي الهواري، ...جئتك قاصدة ...وليدي يخرج من السجن..."[2]

تتوسل هذه الأخيرة وتناشد الولي الصالح وتقصده بغية أن يحرر ابنها من قبضة السجن ما يجعلنا نلاحظ الإيمان الشديد للناس بقدرة هؤلاء الأولياء على حل المشاكل وتفريج الكربات، غير أن هذا العمل نبذه ديننا الحنيف واعتبره شركا بالله عز وجل، إن القدرة لله سبحانه وتعلى وحده على رسم الأقدار وتفريج الأحوال.

1- عبد الملك مرتاض، رباعية الدم و النار،منشورات مختبر السرد العربي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، دط، مج1، 2012م، ص684.

2-المصدر نفسه، ص684

و تقـول كذلك:"سـيدي الهواري،أنـت ولي الهيـة، أنـت القطـب الربـاني، وليـدي في الجبـل، أخـاف عليـه من الظلمة "[1].

هنا تستنجد هذه السيدة بشيخها الهواري أن يرجع ابنها من بين طيات الجبال التي صعد إليها محاربا، تثني عليه وهي قد سمت ابنها عليه تيمنا به عسى أن يحميه هذا الاسم ويبارك فيه، وهذا اعتقاد سائد.

"يا ولي الله، سيدي الهواري، أنت القطب الرباني، جئتك قاصدة، لا تخيبني أنا مغبونة، أنت تعرف يا سيدي الهواري، سافر إلى ما وراء البحر من عشر سنوات ولم يرجع، خلاني بثلاثة، وحدي أعاني، كان عمري عشرين نقصا...تزوجته رومية، الظاهر حدث ذلك، تزوجته علجية..."[2]

تطلب من سيدي الهواري أن يرجع زوجها الذي هجرها وتزوج غيرها، فهو في اعتقادها الملجأ الوحيد الذي يستطيع أن يثلج صدرها.

و تقول امرأة أخرى:"يا سيدي الهواري، من أربع سنوات تزوجت، طول أربع سنوات ولم أحمل، لم أنجب كالنساء، كان زوجي يقذف في رحمي ماء المطر، كأني بدون رحم...بجاه ربي سيدي الهواري، أحمل هذا الشهر، لا يتغامز النساء علي، أنا خائفة وحزينة..."[3].

ثم يدور حوار بينها وبين سيدة أخرى هناك لتسألها إن كانت عاقر."سيدي الهواري لا يزار للضنوء، هذا يزار لشيء آخر، كل ولي يزار لأجل شيء يا بنت..."[4]

تـدعو السـيدة الـولي حتى يقـذف في رحمهـا جنينـا يسـعد قلبهـا ويـدفع عنهـا ألسـنة النسـوة اللاتي يتغـامزن على تأخر حملها، لكن تخبرها السيدة أن لكل ولي اختصاص كالطبيب تماما، فمن يشتكي ألم العيون لا يزور طبيب المعدة، فنلاحظ أنه تم تقسيم الأولياء وبركتهم كلّ يختص بإنزال بركته على أمر ما، ولعل الشيخ الهواري لم يكن يضني العاقر على غرار أنه يعيد الغائب، ويشفي المريض.

سيدي الأخضر بن خلوف: (1479-1585):

يعتبره السكان المحليون في ضواحي مستغانم بالغرب الجزائري،وكامل الشمال الإفريقي وليا صالحا وشيّد له ضريح بمدينة سيدي الأخضر، وأوّل ما يلفت الانتباه بمقام الولي الصالح نخلته التي مازالت تحرسه رغم مرور قرون عديدة عن رحيله، وهو من حدد مكان دفنه كوصية تركها لعائلته، أين كان يتعبد في خلوته وفي مدح الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

---

[1]- عبد الملك مرتاض، رباعية الدم و النار ،رواية حيزية ، ص685.

[2]- المصدر نفسه ، ص685.

[3]المصدر نفسه، ص685.

[4]المصدر نفسه، ص687.

يقال أن كل من يقصد خيمة الشعر التي كان يقطنها سيدي لحضر وانفرد فيها لمدح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر الله، تستجاب دعوته، لذلك يقصدها العديد من الأشخاص كبارا وصغارا، بعضهم يطلب حملا، وبعضهم يطلبون زوجة صالحة، كما يعمد الكثير إلى أخذ تراب أو حجارة من ذلك المكان ويتركها معه كما أوضح الشيخ الذي يجلس بالمكان أنه من الأنس أن يتم ربط تلك الحجارة بالحنة، وأن يحملها الشخص دائما معه وهو دليل على فال خير ونجاح يمسح أعماله.

تنصح السيدة نظيرتها بزيارة ضريح سيدي الأخضر حتى ترزق بمولود فهو على اعتقادهم القادر على إنجابها، وهذا الاعتقاد يتحول إلى إيمان مطلق حتى تحول الشك في قدرة هؤلاء الأولياء إلى كفر.

"-لو زرت سيدي الأخضر بخلوف: في ضريحه يسعد كل ملهوف، عليك به يا صبية، زوريه وقولي لي.

-كيف أصدق يا خالة، يئست.

-الشك في بركة الأولياء كفر يا صبية"[1].

وتروي لها رحلتها مع الأمر نفسه إذ زارت العديد من الأضرحة والأولياء فلم يجد ذلك نفعا، حتى زارت سيدي الأخضر الذي رزقت من بعد زيارته بمولودها.

ولن يكتفوا بالدعاء لدى الضريح، وإنما حينما تتحقق الأمنيات تتم زيارة الأضرحة وذبح الذبائح تعبيرا عن الشكر والامتنان لهذا الولي لأنه أجابهم.

"تتبرّعين بأحد أساورك ليبيعه في سوق الذهب، من أجل أن يشتري به خروفا...ويطعم الطعام للفقراء والمساكين والمقدمين والمحرومين..."[2].

ويحج هؤلاء الناس لأضرحة الأولياء ليس فقط للدعاء وقضاء حوائجهم، ولكن كذلك للتزود ببركة الولي حيث تذهب العروس لتطوف بضريح الولي سبعا شيء من ممارسة التقاليد.

"عروسا مبرزة، مزينة جاءت لتطوف بضريح الولي سبعا، هي والحسان اللواتي يصاحبنها، للتزود بالبركة التحصن من العين، الاحتجاب من الشيطان"[3].

"سيدي الأخضر؟ يا سبحان الله، كيف يكفر الناس بالقيم؟ كيف لا يؤمنون ببركة الأولياء...لا تعرفون سيدي الأخضر، صاحب النخلة، وسيد الخصلة/ ساكن الربوة والخضرة، وأمارته الطريق الحمرة...مغيث الملهوف، سيدي الأخضر خلوف، صاحب النخلة وبرنس الصوف من عجائبه النخلة المستدة..."[4].

---

[1] عبد الملك مرتاض، رباعية الدم و النار ،رواية حيزية ، ص687.

[2] المصدر نفسه، ص691.

[3] -المصدر نفسه، ص691.

[4] - المصدر نفسه ، ص690

هذه بعض النماذج التي توضح التسليم المطلق لبعض الناس ببركة الأولياء الصالحين و قدرتهم رغم موتهم على القيام بأمور خارقة يعجز الإنسان العادي عنلى القيام بها ،و أي شخص يشعر بالريبة اتجاه هؤلاء الأولياء هو في نظرهم قد قارب الكفر.

ب-الأمثال الشعبية:

تعد الأمثال الشعبية خلاصة المجتمع والتفكير الجمعي للوصول إلى عبارة موجزة ذات موسيقى رنانة وجميلة، يكون في عبارة موجزة بالغة تؤثر في الأكثرية لتضمن بقاءها حية ومتداولة من جيل إلى جيل. فالأمثال تناولت مختلف جوانب الحياة، وتطرقت إلى العلاقات الاجتماعية المختلفة.

إنّ الأمثال في كل قوم خلاصة تجاربهم ومحصول خبرتهم وهي أقوال تدل على إصابة المحز وتطبيق المفصل، هذا من ناحية المبنى فإن المثل الشرود يتميز عن غيره من الكلام بالإيجاز ولطف الكناية وجمال البلاغة والأمثال حزب من التعبير عما تزخر به النفس من علم وخبرة وحقائق واقعية بعيدة البعد كله عن الوهم والخيال، ومن هنا تتميز الأمثال عن الأقاويل الشعرية[1].

بدأ الاهتمام بالأمثال يعرف تطورا ملحوظا، وذلك بتوظيف مثل هذه الأشكال ضمن الأعمال الروائية، ومن الذين وظفوها عبد الملك مرتاض في روايته "حيزية" ،و من أمثلة ذلك نذكر:

المثل الأول: "احرث بكري ولا روح تكري"[2]، ويعني وجوب القيام بعملية الحرث باكرا في وقته المحدود، إن فات وقته لن يعود له فائدة ثم القيام بأعمال أخرى.

وهو مثل شعبي يحث على أهمية تنظيم الوقت وتحديد الأولويات بترتيب الأمور وإعطاء الأولويات للمهم منها، وإن دل هذا المثل على شيء فإنه يدل على اهتمام الجدود بتنظيم أمورهم وفقا لما يؤدي إلى نجاحهم.

المثل الثاني: "الذي يقرؤه الذئب يحفظه السلوقي"[3]، يقال أن مورد هذا المثل يعود إلى رجل يملك قطيعا من الخرفان وكان يعاني من مهاجمة الذئاب المفاجئ له لدرجة أنهم يقضون على كلاب الحراسة رغم تعددهم، فنصحه أهل الخبرة بقبيلة مجاورة تعيش بسلام مع قطعانها ولا تعرف الذئاب إليها سبيلا... فاستجار لهم وطلب منهم الحماية فأخبره أن كلابهم مدربة وهي من فصيلة "السلوقي" التي لا تجارى في الحراسة والسرعة والبداهة، وأعطوه منها ما يكفيه لحراسة قطيعه...

---

[1] ينظر: نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، دط، دت ، ص139.

[2]- عبد الملك مرتاض، رباعية الدم و النار ،رواية حيزية ، ص696.

[3]- المصدر نفسه ، ص662.

وكان الذئب يتحايل على الكلاب عند هجومه حيث يدعي أنه خاف منهم ويفر وعندما يلاحقه الكلب يتوقف الذئب توقفا فجائيا فيتجاوزه الكلب بقدر ما يسهل على الذئب الانقضاض على رقبته وقتله...فأراد الذئب أن يمارس نفس الحيلة مع السلوقي الذي كان أكثر بداهة منه حيث لم يتجاوز الذئب عند توقفه الفجائي بل اتخذ وضعية الهجوم والقتال ما جعل الذئب يفر بجلده إلى غير رجعة، فسرَّ الرجل وقال: لي قراه الذيب السلوقي حافظو" وصار المثل مضروبا لكل من يدعي الفطنة أمام من هو أفطن منه وأكثر حيلة.

وقد أورد مرتاض هذا المثل حين قام السجناء في الزنزانة بالسقوط على الأرض لتعبهم من تكسير الحجارة حتى يشربوا قليلا، فأخبرهم الحركي هذا المثل حتى يبين لهم أنه فطن لخدعتهم.

المثل الثالث: "تجوع الحرة ولا تأكل بثديها"[1]: تعود قصة هذا المثل إلى "الحارث بن سليل الأسدي" وقد كان صاحب مال وجاه وسيادة. وقيل إنه في أواخر أيامه افتتن ببنت صديقه علقمة بن خصفة الطائي فطلبها للزواج، رفضت البنت وفضلت أن تكون من نصيب شاب صغير إلا أن والدتها أقنعتها في الأخير وزوجتها من الحارث على مهر كبير.

وذات يوم تجلس الزباء بنت علقمة في الفناء مع الحارث يشاهدون صراع لشبان فتنفست الصعداء وانفجرت بالبكاء، فقال لها الحارث: ما يبكيك؟ فقالت: ما لي وللشيوخ الناهضين كالفروخ؟ فقال لها: ثكلتك أمك، تجوع الحرة ولا تأكل بثديها، وطردها. فهو مثل يقال في واقف الصبر وحفظ الكرامة والترفع عن المال غير المشروع.

وظفه الروائي عتبا على حال الحركي الذي قرر أن يخون الوطن ،ويعيش عيشة هنيئة ويشبع جوع أطفاله ويسد حاجاتهم ،وكانت الحركة الحل الوحيد له للتخلص من الفقر، فضرب هذا المثل ليبين أنه لو عاش فقيرا مخلصا لوطنه خيرا من أن يغنى على حساب الوطن، فالحرة تجوع ولا تأكل بثديها.

المثل الرابع:"ومن يشبع البطن يقول للراس غني" [2]،وهو مثل شائع بين الأوساط الشعبية والمستعمل كثيرا في المجتمعات العربية للتعبير عن حالة الفرحة التي يكون فيها المرء عندما يجد نفسه مكتفيا لا ينقصه شيء وقد أورده الروائي ليعبر عن حال الرجل المقدم في الزاوية بعد أن شبع من أكل لحم الشاة المذبوحة، فبعد أن أصابته التخمة راح يرح بخياله يرى نفسه وسط جوار يرقص ويغني.

هذه بعض الأمثال الشعبية التي وظفها مرتاض في الرواية ،و التي كان لها دور كبير في تكثيف الدلالة التي يريد الروائي إيصالها إلى المتلقي.

---

[1]-عبد الملك مرتاض، رباعية الدم و النار ،رواية حيزية ، ص733.

[2]- المصدر نفسه ، ص 680.

ج- <u>الأغاني الشعبية:</u>

تتميز الأغاني الشعبية بسمة رئيسة، تكمن في أنها مجهولة المؤلف وعامية اللغة، مرتبطة بالوجدان مباشرة . و "فهم الأغاني الشعبية وتتبع مراميها، والتعامل ذوقيا مع جمالياتها يستلزم بالضرورة فهما واعيا لبنية المجتمع وعاداته وتقاليده وتاريخه...والتي يمكن أن تتمثل جميعا في حركة المجتمع من عصر لعصر ومن جيل لجيل"[1].

و من الأغاني ذات الانتشار الواسع في التراث الجزائري: الأغاني الجماعية،و تكون عبارة عن حلقات تضم مجموعة من المغنين، ومثال ذلك المداحات التي تكون بالزاوية: "كنت تتمنين أن تقومي بحفلة كبيرة، زفافا فخما، يرقص فيه الناس، وتدعين إليه "المداحات" ويتغنين على إيقاع الطبل ورقصات الحسان..."[2].

و قد اكتنفت رواية "حيزية" أغاني شعبية متنوعة ،منها ما كان يردده المقيمين في الزاوية حيث كانوا يترقبون لحم الشاة الشارف وهي تطبخ في القدر من شدة الفرح بها، جعلوا من الإيقاع الذي يحدثه الطبيخ في القدر طبلا لأغنية رددوها:

-ودانا دانا.

-واللحم عشانا.

-والشيخ جانا.

-يا دانا دانا ودانا دانا.

-والقمل كلانا.

-والجوع ذوانا.

-ودانا دانا ودانا دانا[3].

وهي أغنية عبر بها من في الزاوية على جوعهم وفي نفس الوقت فرحهم بالوليمة التي ستقام بعد أن ذبحوا الذبيحة ،وسيكون اللحم عشاءهم يسدون به جوعهم.

ثم أورد كذلك:

أصحاب البارود، أصحاب البارود.

بالك ماتجيش يا العزبة البايرة.

والله ما بايرة، عزبة وكي دايرة.

---

[1]- حلمي بدير، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث ، ص45،46.

[2]- عبد الملك مرتاض، رباعية الدم والنار،رواية حيزية، ص759.

[3]-المصدر نفسه، ص687.

ماجاش البارح ما جاش اليوم.

ظنيته جايح وداه النوم[1].

وهي من الأغاني التي كانت تردد في مناسبات الزواج على دقات طبول المداحات.

2-2- الموروث المادي:

هو عبارة عن الجزء الملموس وإبداع الممارسات البدوية، فهو يتضمن معالجة المواد الأولية الطبيعية كالطين والخشب، طبقا لمعارف وفنون ومهارات تحصل بتراكم التجربة ويتم تداولها ونقلها بالمعاينة والمشاهدة ثم بالممارسة، فيحققها الحرفي ويبدع فيها أحيانا، ومثل تلك المعارف والموضوعات والفنون الجانب اللامادي من التراث الشعبي[2].

أ-الأكل الشعبي:

عرضت الرواية نماذجا من الطبخ الشعبي الذي ارتبط أساسا بالنشاط الزراعي. وأدى الطبخ الشعبي دورا هاما في تعميق إنتماء الشخصيات للعائلة الشعبية والقيم الاجتماعية التي قامت عليها، ذلك أن الإنسان الشعبي لا يعلق أهمية كبيرة على نوع الطعام.

وردت في الرواية عدة أنواع من المأكولات الشعبية، والتي اختلفت من حيث المراد وأساليب إعدادها وتحضيرها:

***الكسكس:** هو طبق أمازيغي ضارب في التاريخ، يصنع من طحين القمح أو الذرة في شكل حبيبات صغيرة ويتناول بالملاحق أو باليد، يطبخ بالبخار ويضاف غليه اللحم، أو الخضار، أو الحليب، أو الزبدة والسكر الناعم حسب الأذواق والمناسبات.

الكسكسي الذي له شعبية كبيرة في البيئة الاجتماعية، فقد تختلف تسمياته حسب كل منطقة، ويعد هذا الطبق من أهم مكونات الوجبات الغذائية الجزائرية إلى حد اليوم، وتدل كلمة كسكس بالعامية والفصحى على المعنى نفسه و"هو طعام يعمل من الدقيق وهو مشهور عند العامة والخاصة من الناس"[3].

حيث ذكره الروائي في قوله:

" وتجيش القدور باللحمان، والكسكسي، ويأكل الصيّام والمحرومون..."[4].فهو الطعام المفضل عند الجميع.

***خبز الشعير:** وهو خبز قوامه سميد الشعير أو الدقيق.

---

[1] - عبد الملك مرتاض، رباعية الدم و النار ،رواية حيزية ، ص769.

[2] سيد حامد حريز، تصنيف العادات والتقاليد الشعبية،مجلة المأثورات الشعبية، العدد 12 ،أكتوبر 1988، ص33.

[3]-بطرس البستاني، المحيط قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، د ط، 1987م، ص776.

[4]- عبد الملك مرتاض، رباعية الدم و النار ،رواية حيزية ، ص690.

وظفه الكاتب في الرواية على أنه كان قوت الفقراء فهم يتغذون عليه أساسا إن لم يكن الغذاء الوحيد أحيانا.

"وتحمل قرابا من الدم تضع فيه رغيفا من خبز الشعير اليابس"[1].

ب-اللباس الشعبي:

يشير "مفهوم اللباس التقليدي فيما يسمى بالثقافة المادية فهي تشكل ذلك الجزء المهم من الثقافة والذي أعرته الدراسات والبحوث جانب من الاهتمام، تعتبر الأزياء التقليدية مصدرا وثائقيا يعكس مظهرا من مظاهر الحياة التقليدية لأي شعب من الشعوب وعنصرا مهما من عناصر الموروث المادي يعبر عن جوانب الحياة الثقافية و الاجتماعية والاقتصادية، كما أنه وسيلة من وسائل التعرف على فنون المجتمع، فاللباس التقليدي مظهر حضاري وثقافي يمثل هوية المجتمع الشعبية، ويرمز إلى الأصالة والعراقة الت تميز مجتمعنا عن غيره، وهذه الأزياء تسبقها عادات وتقاليد المجتمع"[2]. فالأزياء التقليدية تتوارث داخل الجماعة الشعبة ليس لها بداية وليس لها مصمم، وتعكس عادات وتقاليد المجتمع الذي تنتمي إليه، كما أنها تعكس أنماط الحياة وتطورها وتكشف روح العصر، وعموم الحياة المادية والاجتماعية والفكرية وملامح الحياة بصفة عامة وذوق الشعوب بصفة خاصة[3].

أشار مرتاض في الرواية إلى بعض من اللباس الرجالي نذكر منه العمامة: وتسمى اللفافة، وهي من القماش الرقيق جدًّا يلف بها الرجل رأسه ورقبته وقد تطول لزاما بها الرجل رأسه .ويبدو من خلال الرواية أن نوع العمامة كان يختلف ارتداء ها على حسب طبقات المجتمع، فتختلف عمامة الباشاغا بكونها عمامة مزدوجة تزدهي بالألوان، وكأن تلك العمامة والألوان التي تعلوها وملمسها الحرير الناعم هي رمز للوقار والمكانة المرموقه في المجتمع .

"بعد أن كنت تنتعل نعلا من الحلفاء، ترتدي جلبابا من الصوف الموذح ، وقميصا من شعر الماعز"[4]."ستغير تركيب عمامتك هذه ولونها ستعتم بعمامة مزدوجة، الفوق أصفر فاقع، والتحت أبيض ناصع، والمس في الجلين لين، لأنه حرير ناعم..."[5].

---

[1] عبد الملك مرتاض، رباعية الدم و النار ،رواية حيزية ، ص763.

[2] -خديجة لبيهي، مذكرة المضامين التربوية للتنشئة الاجتماعية للمرأة في الثقافة الشعبية المكتوبة وادي سوف نموذجا، الأطروحة دكتوراه في علم الاجتماع تخصص علم الاجتماع التربية، جامعة محمد خضير بسكرة، 2014/2015، ص316.

[3]-عبد الملك مرتاض، رباعية الدم و النار ،رواية حيزية ، ص388.

[4]- المصدر نفسه، ص703.

[5]-المصدر نفسه، ص710.

"على الأقل تصبح قائدا الباشاغا في إحدى المدن الجميلة وبعمامة صفراء تحتها رداء أبيض شفاف، وكأنك الإمام مالك"[1].

إن اللباس الشعبي يحمل دلالات اجتماعية، فهو ليس مجرد مظهر خارجي ،بل يجيء وراءه عديد القيم والضوابط التي تعبر عن روح المجتمع ووجوده الحضاري.

خاتمة:

خلاصة لما سبق،يعتبر التراث الشعبي من أهم مرجعيات الرواية الجزائرية ، حيث شغل حيزا مهما في إبداعات عدد كبير من الروائيين الجزائريين ،مما أكسبها أهمية بالغة كونه يخدم البناء الروائي على المستويين التقني والجمالي ، ورواية "حيزية"لعبد الملك مرتاض من الروايات التي حفلت بكم هائل من مكونات التراث الشعبي سواء اللامادي منها أو المادي.

اقتصر توظيف التراث اللامادي في رواية "حيزية" على:

- ✓ المعتقدات الشعبية السائدة لدى الناس خاصة الاعتقاد ببركة الأولياء الصالحين(سيدي الهواري، وسيدي الأخضر بن خلوف).
- ✓ الأمثال الشعبية التي تتداول بين أفراد المجتمع ،و يتم ضربها لتشابهها مع حوادث وقعت في الرواية.
- ✓ الأغاني الشعبية التي تعبر عن فرح الناس و حزنهم.

أما التراث المادي فتجلى في:

- ✓ الأكل الشعبي و المتمثل أساسا في طبق الكسكسي ،وخبز الشعير.
- ✓ اللباس الشعبي الذي يعطي صورة جلية للشخص و لمكانته في المنطقة ،و مثاله في الرواية العمامة و البليغة.

قائمة المصادر و المراجع:

1- أحلام سيليني،أحسن دواس ،مرجعيات التشكيل الروائي في رواية سيد الخراب لكمال قرور ،مجلة إشكالات في اللغة و الأدب،تمنغست ،المجلد 10،العدد5 ،2021م .

2- حلمي بدير، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء، لدينا الطباعة والنشر، الإسكندرية، دط 2002.

3-بلحيا الطاهر، التراث الشعبي في الرواية الجزائرية، منشورات التبيين الجاحظية، الجزائر، دط، 2000م.

4-سعيد سلام، التناص التراثي ، الرواية الجزائرية أنموذجا،عالم الكتب الحديث،إربد ،الأردن،ط1 ،2010م.

5-سعاد حميدة، جمالية الصراع بين المقدس والمدنس في الشعر الشعبي بمنطقة تبسة، أطروحة الدكتوراه جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله، 2018/2017، مخطوط.

[1]- عبد الملك مرتاض، رباعية الدم و النار ،رواية حيزية ، ص689.

6-محمد الجوهري، علم الفلكلور، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1978، ج1.

7-إبـراهيم بـدران وسـلوى الخمـاش، دراسـات في العقليـة العربيـة، الخرافـة، دار الحقيقـة، بيروت، ط3 1988 م.

8-عبـد الملـك مرتـاض، رباعيـة الـدم و النار،منشـورات مختبر السـرد العربي، جامعـة منتـوري، قسـنطينة الجزائر، دط، مج1، 2012م.

9- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، دط، دت.

10-سـيد حامـد حريـز، تصـنيف العـادات والتقاليـد الشـعبية،مجلة المـأثورات الشـعبية، العـدد 12 ،أكتـوبر 1988م.

11-بطرس البستاني، المحيط قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، د ط، 1987م.

12-خديجـة لبيهي،المضـامين التربويـة للتنشـئة الاجتماعيـة للمـرأة في الثقافـة الشـعبية المكتوبـة وادي سـوف نموذجـا، دكتـوراه في علـم الاجتمـاع تخصـص علـم الاجتمـاع التربيـة، جامعـة محمـد خضـير بسـكرة 2014/2015، ص316.